منهج الموازنة بين النظرية والتطبيق

شكل منهج الموازنة معيارا للحكم بين الشعراء منذ العصر الجاهلي، وهو احد انسب الادوات في المفاضلة التي كانت جزءا من التفكير النقدي البدائي العربي، فتروي كتب الادب ان النابغة الذبياني الشاعر كانت توضع له قبة حمراء من الادم -اي الجلد- في سوق عكاظ يتوافد اليه الشعراء من كل قبيلة ، ينشدون افضل ما لديهم من اشعار، تمثل في حقيقتها وسائل للتفاخر الشخصي والقبلي بينهم، باعتبار القيمة الادبية والسياسية للمناسبة، اي سوق عكاظ الذي كانت وظيفته تتجاوز الادب الى حل المنازعات والمناظرات والمنافرات ذات الطابع القبلي التي كان الشعر احد وسائلها، هذا الى جانب المفاخرات بين الشعراء، وقد كان النابغة يلقي الاحكام الشعرية على ما يسمع من اقوال الشعراء اعتمادا على الانطباع ومدى قرب القصيدة من المعايير التي تواضع عليها الشعراء من الجودة والغزارة واللفظ والمعنى المتناسبين زغيرها من المعايير.

ومما يروى من مواقف ما قاله للخنساء حين انشدته، وكان الاعشى قد سبقها عنده ثم انشده حسان بن ثابت : لولا ان ابا بصير انشدني (ويعني الاعشى) لقلت أنك اشعر الانس والجن، فغضب حسان قائلا: لأنا اشعر منك ومن ابيك ومن جدك.. فقبض النابغة على يده ثم قال: يا بن اخي أنك لا تحسن ان تقول مثل قولي:

فانك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء : انشديه، فأنشدته فقال: والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك(الشعر والشعراء)

وهناك شذرات نقدية كثيرة قائمة على معيار الموازنة في الاحكام.

وظل منهج الموازنة قائما حتى العصور اللاحقة، يغذيه الصراع السياسي والقبلي لاسيما في العصر الاموي، لنجد الولع بالمفاضلة بين جرير والفرزدق والاخطل، الذين اتخذ منهم المتناحرون على السلطة ادوات معبره عن احقيتهم بها، فكان جرير شاعر الامويين والفرزدق شاعر العلويين والاخطل وافق جريرا، ونشبت بينهم خصومات ومنافرات غذتها القبائل والذوق العام الذي وجد في مناقضاتهم اداة للتسلية واللهو ، مع الاشارة الى نقطة مهمة وهي ادراك الشعراء للعلاقة بينهم والتي تحولت الى رابطة خفية كان من نتائجها ارتباطهم بالذهنية النقدية العربية بوصفهم طبقة ، وقد اخذ كل منهما نصيبه من النقد والتقدير على حد سواء، قال الجاحظ:" وكان مالك بن الاخطل قد بعثه ابوه الى يسمع شعر جرير والفرزدق فسأله ابوه عنهما فقال: جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر، فقال: الذي يغرف من بحر " / البيان والتبيين، والحكم هنا يتعلق بالألفاظ والمعاني ومجمل ما يتعلق بالأسلوب الشعري لكلا الشاعرين، وهو في اساسه قائم على الموازنة بين الاشعار بشكل عام، ومن نماذجها ما نجده في قول نصيب بن رباح الشاعر مصنفا شعره واشهار معاصريه وفق اسس دقيقة: جميل أمامنا، وعمر بن ابي ربيعة أوصفنا لربات الحجال، وكثير أبكانا على الدمن وأمدحنا للملوك"/ الاغاني.

وكذلك في الكلام الذي ساقه ابن قتيبة حين سأله الحجاج عن أشعر شعراء الجاهلية وشعراء زمانه يقول: اشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس، واضربهم مثلا طرفة، وأما اشعر شعراء الوقت فالفرزدق افخرهم، وجرير اهجاهم، والاخطل أوصفهم"/ العمدة.

وحين سئل الاخطل: أيكم اشعر؟ قال: انا امدحهم للملوك وانعتهم للخمر والحمر(اي النساء)، واما جرير فأنسبنا وأشبهنا، وأما الفرزدق فأفخرنا./ الشعر والشعراء.

وسئل اعرابي أيهما- اي جرير أم الفرزدق- عندكم اشعر؟ قال : بيوت الشعر اربعة فخر ةمديه وهجاء ونسيب وفي كلها غلب جرير، في الفخر قوله:(الشعر والشعراء)

اذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وفي المدح قوله:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وفي الهجاء قوله:

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وفي النسيب قوله:

إن العيون التي في طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

ومن الواضح في النماذج اعلاه ان الموازنة تقوم على الاجادة في غرض من الاغراض ، وذلك بعد ان كانت عامة بلا قواعد ولا محددات وان هذه الاحكام تمت وفق مبدأ الطبقة والذي سيتطور ويظهر بوضوح ومنهجية ادق عند ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء الذي اختار ١١٤ شاعرا من شعراء الجاهلية والاسلام ووازن بينهم وصنفهم في طبقات وفقا لمعايير وجعلها ٢٣ طبقة، عمد الى تقسيمها فجعل كل طبقة مقسمة الى عشر طبقات في كل طبقة اربعة شعراء، وكانت معاييره تتنوع بين الجودة والكثرة والتنوع القبلي والمكاني.

وحين الف ابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء اشار الى الاضرب الاربعة التي ينماز اليها الشعر عموما ، وكان واضحا انه رتب الشعراء لاحقا ترتيبا زمنيا لكنه اعتمد معيار الجودة والشهرة في ترتيب شعراء العصر الواحد، وجميع ما سبق محض موازنات جزئية، لا ترقى الى المنهج الشامل.

ويظهر منهج الموازنة بأوضح صورة وادق منهجية في العصر العباسي بعد ظهور اتجاهات نقدية متنوعة واختلاف أذواق النقاد وثقافتهم، فمن كان يفضل سهولة الكلام وجودة السبك وسلاسة العبارة يختار مذهب البحتري، ومن كان ميالا الى الابتداع والصنعة والتجديد والغموض فضل مذهب ابي تمام.، فابن الاثير يعقد موازنة بين اكبر ثلاثة شعراء عباسيين وهم كل من ابي تمام

والبحتري والمتنبي، واصفا اياهم ب(لات الشعر وعزّاه ومناته) يعني آلهة الشعر في عصرهم، ولأن اشعارهم جمعت بين غرابة المحدث وفصاحة القدماء، وكانت الامثال والحكم موجودة فيها.

ويصف ابي تمام بالقول: "رب معان وصقيل ألباب واذهان وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على اثر" ويصف البحتري بالقول:" فانه احسن في سبك اللفظ على المعنى واراد ان يشعر فغنى، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق فهو غير مدافع عن مقام الاعراب الذي برز فيه على الاضراب"، وحين يتكلم عن ابي الطيب المتنبي يفاجئ القارئ بقوله:" فانه اراد ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما اعطاه لكنه حظي في شعره بالحكم والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال، وانا اقول قولا لست منه متأثما ولا منه متلثما، وذلك انه خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها وقامت اقواله للسامع مقام افعالها .... ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء": المثل السائر.

ومن قراءة الافكار في الاقوال اعلاه يبدو الانحياز ضد المتنبي واضحا الى الدرجة التي وصف فيها د. احسان عباس رأي ابن الاثير في المتنبي بالقول:" ولا ريب في أن الجرأة والاعتداد بالنفس اللذين يبلغان لديه حد الغرور"، ومن الواضح ان الانحياز والتحزب بسبب طبيعة الجو الادبي السائد كانا سببا في خروج الكثير من الاراء عن المنطق والعقل، نعم ان الشعراء يتفاوتون في مسالكهم وطرائقهم واختلافهم طبيعي لان ذلك يرجع الى عوامل كثيرة منها قوة الموهبة والثقلفة الشعرية والخزين اللغوي والدوافع لقول الشعر .

وتبدو نظرة حازم القرطاجني منصفة من جهة تتبع العوامل التي تسبب تفاوت الشعراء وضرورة الحكم عليهم وفق معايير عادلة، فهو على ما يبدو لا يحبذ الموازنة الناتجة عن مواقف شخصية من الشعراء ولا يحمل الشعراء وزر هبوط المستوى الفني ويشخص عدة عوامل تسبب تفاوت الشعراء منها النمط الذي يبرع فيه الشاعر فمن يبرع في النمط الذي يتسم بالمتانة والجزالة قد لا يبرع في الاخر الذي يتسم بالرقة واللطافة وبالعكس، وهناك شعراء احسنوا في النسيب فاختصوا به وحظهم في الهجاء والمديح قليل، كما يؤكد دور العامل الزمني فالشعر يختلف باختلاف الازمان فهناك اوقات يميل فيها الشعراء الى موضوعات الخمر واللهو وازمان تسود فيها موضوعات الحروب والقتال وغيرها تبعا لظروف كل عصر، الى جانب تأكيده على البيئة فهناك معايير بيئية تفرض رموزها على الشعراء ومن يعش في البوادي غير من يعش في الحواضر ولكل منهما رموزه التي تشكل افكار الشعراء وتوجهاتهم، فبعض الشعراء يبرع في وصف الوحوش والاخر يبرع في وصف الرياض .

وهناك من الشعراء من تتفاوت احوالهم فمنهم من يحسن الفخر ولا يحسن التضرع والتقرب الى الاخرين ، ومنهم من يوجه شعره نحو الخواص طلبا في التقرب منهم، كما ان اللغة المستعملة تتفاوت بين الغريب الوحشي الصعب والسلس الواضح المستعمل، وبالمحصلة يؤكد حازم على توافر الاسباب التي تهيء لقول الشعر عند الشعراء وعدم توافرها عند آخرين، ما يعني وجوب تشابه العوامل المهيئة لعقد موازنة عادلة تتشابه فيها الظروف والاحوال ، ومن الطبيعي ان نجد

لدى حازم هذا التشخيص الدقيق للشعر واحوال الشعراء لانه شاعر واشهر قصائده المقصورة التي اربت على الالف بيت قالها في رثاء الاندلس وفيها استنهض الهمم لانقاذها مطلعها:

لله ما قد هجت يا يوم النوى على فؤادي من تباريح الجوى

تبدو نظرة حازم القرطاجني(ت٦٨٤هـ) بحكم تأخره منطقية بعد عقود الصراعات الادبية التي القت بظلالها على النقد العربي، وحولت الساحة الادبية الى ميدان للصراع السياسي والفئوي الذي يقف وراء اندفاع الشعراء للتقرب من اصحاب السلطان .

وترتبط الموازنة بإطارها النقدي الحقيقي عند الآمدي في كتابه الموازنة بين ابي تمام والبحتري التي يسميها البعض الموازنة بين الطائيين، ذلك لأنه ارتفع عن سخف التحيز وسذاجة الخصومة واعتمد منهجا نقديا علميا دقيقا قام على الموازنة على وفق الافكار والمعاني واللغة والموضوعات الشعرية، ويصف منهجه في مقدمة كتابه بالقول:" وانا ابتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين لاختم بذكر محاسنهما، واذكر طرفا من سرقات ابي تمام واحالاته وغلطه وساقط شعره ومساوئ البحتري في اخذ ما اخذه من معاني ابي تمام وغير ذلك من غلط في بعض معانيه، ثم اوزان من شعريهما بين قصيدتين اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية ثم بين معنى ومعنى فان محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك ثم اذكر ما انفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ، ولم يسلكه صاحبه، وافرد بابا فيما وقع في شعريهما من الشبيه، وبابا للأمثال اختم بهما الرسالة واختم ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما "/ الموازنة

وهو يشير في الكتاب الى ان ابي تمام صار صاحب مذهب انفرد وشهر به، فسلك الشعراء مذهبه واقتفوا اثره وعدم البحتري هذه الصفة، ويورد رد من وافق منهج البحتري بأن ابي تمام لم يبتدع هذا السبيل وانما اخذه من مسلم بن الوليد المجدد وانحرف به، وحتى مسلما لم يبتدع هذا المنهج الشعري المجدد بل انه نظر الى ما في اشعار المتقدمين منها وكذلك ما ورد في كتاب الله عز وجل منها على نحو قوله تعالى:" واشتعل الرأس شيبا"، مريم/٣، و" وآية لهم الليل نسلخ منه النهار"/ يس ٣٧، وغيرها كثير ، ثم يسرد الكثير من شواهد البديع من استعارة والتجنيس والطباق وغيرها في شعر المتقدمين، ليثبت اصلا عدم وجود مذهب جديد جاء من العدم.

ويستشهد بأقوال العلماء والسابقين لتأكيد رأيه، على نحو ما نقله عن ابن المعتز من ان بشار وابا نؤاس ومسلم لم يسبقوا الى هذا الفن، ولكنه كثر في زمانهم وتفرع فيه ابو تمام وأكثر منه.

ملاحظة: مرفق نماذج من كتاب الموازنة لتحليل الافكار.

١٣- ٢٢، الصفحات ٤٢٠-٤٢٣(في فضل ابي تمام والبحتري) ،الصفحات٤٧٤-٤٧٩ فيما قالاه في وصف الديار.

مصادر المحاضرة:

- كتاب الشعر والشعراء – ابن قتيبة
- طبقات الشعراء- ابن سلام
- المثل السائر- ابن الاثير
- منهاج البلغاء- حازم القرطاجني
- الوساطة – القاضي الجرجاني
- كتاب الموازنة للآمدي